الباب الخامس

الأدب الأمريكى فى القرن التاسع عشر

لعلك تعلم أن القرن السابع عشر فى انجلترا كانت قد طغت عليه موجة من التزمُّت الدينى ، كان من آثارها ثورة « كرمول » وقتل الملك شارل الأول ؛ ثم ذهبت عن انجلترا هذه الموجة لتطغى فى مكانها موجة مضادة فى القرن الثامن عشر ، موجة تغلب عليها السخرية من الجمود الدينى ، و إذن فلم يبق فى البلاد (انجلترا) متسع لأعقاب أولئك المتزمتين وكان لا بد لهم من الرحيل إلى بلاد أخرى ، فرحل كثير منهم إلى أمريكا ، وهناك أشاعوا شيئاً من روحهم الدينية التى كانت الظروف القائمة فى انجلترا تضطرهم إلى كبتها وكتمانها ؛ ولهذا نشأ فى تلك البلاد الأمريكية طائفة من الأدباء تعبر عن هذه الروح ، ومن بين هؤلاء فى القرن التاسع عشر « إمرسن » و « هوتورن » و « لونجفلو » ممن سيأتى ذكرهم بعد ، وليس معنى ذلك بالطبع أن كل من حمل القلم فى أمريكا فى القرن التاسع عشر ، كتب مستوحياً روح التزمت الدينى والأخلاق ، بل هناك من أدباء العصر المذكور من لا تجد أثراً لمثل هذه الروح فى أدبهم ، مثل « إدجر ألن پو » و « ويتمان » — وفيما يلى عرض مختصر لهؤلاء الأدباء جميعاً على اختلاف نزعاتهم .

رالف وولدو امرسون Ralph Waldo Emerson (١٨٠٣ — ١٨٨٢)

ولد فى « بوسْتُن » وفى عامه الرابع عشر دخل جامعة « هارڤرد » ؛ لكنه فقير لا يملك ما يعينه على سد نفقات عيشه ودرسه ، فكان لا يترفع عن العمل كائناً ما كان ليكسب ما يريد من دريهمات ، مثال ذلك أنه كان أحيانا يعمل مناولا (جرسونا) فى ساعات فراغه فلما بلغ الخامسة والعشرين نصب قسيساً ، لكنه لم يلبث فى منصبه ذاك سوى ثلاثة أعوام ثم استقال لأنه أحس فى ضميره لذعة ، إذ كان قسيساً لفرع من فروع العقيدة المسيحية ، لا تتفق تمام الاتفاق مع عقيدته ، وعندئذ سافر إلى انجلترا حيث قابل من الأدباء « كولردج » و « وردزورث » و « كارلايل » ؛ من ذلك الحين أخذت مجموعات مقالاته الأدبية تصدر

واحدة فى إثر واحدة ، ومن أهمها كتابه عن « الخلق الإنجليزى »[1] — على أنه إلى جانب جولاته الموفقة فى أدب المقالة ، كان شاعراً مجيداً ، أحب من الشعراء « شيكسبير » و « دانتى » و « كولردج » ، ولم يبهره شىء فى سفر « شلى » وقليلا جداً ما كان يقرأ القصص فكلما حاول أن يقرأ « سيرفانتيز » أو « سكت » أو « جين ارستن » أو « دكنز » — وهم من أعلام الأعلام فى الأدب القصصى فى العالم أجمع — أخذه الملل ولم يستطع أن يمضى فى قراءته .

كان « إمرسن » — كما أسلفنا لك القول — من الملتزمتين فى الدين والأخلاق ، وبهذه الروح كتب ما كتب ، وإن القارئ الحديث ليقرؤه اليوم ، فيظن أنه كاتب سبح فى الهواء ليخاطب ناسا فوق السحاب ، ولم يقصد بأدبه إلى هؤلاء البشر فوق هذه الأرض شبَّهه « ماثيو آرنلد » الناقد الانجليزى بالامبراطور الفيلسوف «مرقص أورليوس» وحسبك هذا لتعلم كثيراً عن « امرسن » ورأيه فى الفضيلة والحياة الفاضلة ، فما الفضيلة عنده بالأمر الهين ، وما الحياة الفاضلة فى رأيه إلا طريق ضيق وعر يتطلب من السائر فيه مجهوداً ، ولأنه يتطلب هذا المجهود كانت له قيمته .

كان « إمرسن » لا يمجد شيئاً تمجيده للروح الانسانية ؛ وهو حين كتب فى تمجيدها لم يكن معبراً فى حقيقة الأمر عن مذهب دينى بعينه أو عقيدة بذاتها ، إنما كان بمثابة الصوت الذى لا يكاد ينتسب إلى فرد معين أو يصدر عن جسد معلوم ؛ هو فى كتابته بمثابة من يعلن لا بمثابة من يؤيد أقواله بالحجة والدليل ؛ ومع تمجيده هذا لروح الإنسان ، لم يقل ما هى تلك الروح ، ولعله أدرك وآمن أنها « من أمر ربى » :

« إن من نسميه عادة بالإنسان ، الإنسان الذى يأكل ويشرب ويزرع ويحسب ، ليس بمثل هذه الجوانب من حياته يمثل نفسه ، بل إنه — على نقيض ذلك — يبدى ما لا يمثل نفسه ؛ إننا لا نحترم الإنسان بسبب هذه الأشياء ، أما الروح التى إن هو إلا أداة لها ، فنحن نحثو لها احتراما إذا ما أبداها الإنسان فى فعله ؛ إن الروح إذا ما تنفست خلال عقله فهى العبقرية ، وإذا ما تنفست خلال فعله فهى الفضيلة ، وإذا ما فاضت فى ثنايا عاطفته

---

(١) English Traits

فهى الحب . . . والغاية من كل إصلاح — فى هذا الجانب من الحياة أو ذاك — إنما هى أن تأذن للروح أن تلتمس طريقها إلى الظهور خلالنا ، أو بعبارة أخرى الغاية من الإصلاح هى أن نتعلم كيف نطيع الروح » .

الروح عند « إمرسن » خير منبر نرتقيه لنعبر عن سر وجودنا ومعناه ، هى الحلقة الحقيقية التى تصلنا بالله ؛ فلن تبدو الروح فى فكر أو عمل إلا كان الإنسان المفكر أو العامل متصلا بالله صلة قوية مكينة « إن أكثر الناس سذاجة ، إذا ما عبد الله بما يبديه فى شخصه من تماسك خلقى ، إنما يصبح جزءاً من الله . . . إن فكرة الإله إذا ما أشرقت على الإنسان كانت محببة إليه ، مريحة لنفسه ؛ تعمر له المكان الخلاء ، وتمحو من حياته وصمات أخطائه وخيبة رجائه . . . إن الإنسان إذا ما مجد الروح وأدرك أنها — كما يقول القدماء — ذات بهاء لا ينفد . . . فلن تعود حياته بعدئذ كالثوب المرقع المهلهل ، بل سيحيا حياة تمسك أطرافها وحدة إلهية » .

بمثل هذه النغمة الدينية الخلقية التصوفية كان يكتب « إمرسن » لا يحدُّ من أفقه شعائر مذهب معين ولا عقيدة بذاتها .

ناثانيل هوثورن Nathaniel Hawthorne (١٨٠٤ — ١٨٦٤) :

وهذا كاتب آخر ، صدر فيما كتب عن روح دينية أخلاقية ، كما صنع « إمرسن » ؛ كتب لأمه ولم يزل صبياً يافعاً فى المدرسة « لست أريد أن أكون طبيباً لأعيش على أمراض الآخرين ، ولا قسيساً لأعيش على خطايا الآخرين ، ولا محامياً لأعيش على اختصام الآخرين ؛ لذلك لست أرى لى طريقاً سوى أن أكون كاتباً » — لكن الكتابة — للأسف — سرعان ما بينت للشاب « هوثورن » حين بدأ يكتب أنها لا تصلح مورداً للرزق ، إلا إذا كان الكاتب معروفاً مشهوراً ؛ فاشتغل فى مناصب سياسية حينا ، حتى ظفر بالشهرة المطلوبة للأديب إذا أراد أن يكسب قوته عن طريق أدبه ، وإنما ظفر بتلك الشهرة حين أخرج كتابه المشهور « الحرف القرمزى »[1] الذى جعل فيه بطل القصة

---

(١) The Scarlet Letter

و بطلتها يسلكان سلوكا فيه خرق قليل لقواعد الأخلاق كما يفهمها المتدين المتزمت ، فينصب عليهما العقاب جزاء وفاقاً بما فعلا ؟ وله كذلك « البيت ذو الأسقف السبعة » وهى قصة عبر فيها الكاتب عن عقيدته بأن جناية الآباء تنحدر إلى الأبناء ؛ ثم له أيضا قصة « تمثال من المرمر[٢] » التى كتبها بعد جولة فى ربوع أوروبا ، وحاول فيها أن يجد ما يرضى نفسه من تحديد الفضيلة والرذيلة ، وهو الموضوع الذى شغل ذهنه زمنا طويلا بحكم نزعته الدينية والأخلاقية ، ولكنه فيما يظهر ترك المشكلة بغير تحديد

ولكننا إذا ما وصفنا « هوثورن » بأنه متزمت فى الدين ، فينبغى أن نضيف إلى هذا الوصف أنه أخذ من ذلك التزمت الدينى رصانته دون تخريفه ، وكان من مذهبه أن الضمير الإنسانى خير هاد فى الحياة الخلقية ، فقد آمن بصدق ضميره إيمانا لم يرض شعوره الدينى والأخلاق فحسب ، بل وجد فيه كذلك ما يقنع عقله

هنرى وادزورث لونجفلو Henry Wadsworth Longfellow

(١٨٠٧ — ١٨٨٢) :

وهذا شاعر ، كان كزميليه الناثرين « إمرسُنْ » و « هوثورن » ينشىء أدبه مدفوعا بالنزعة الدينية ، فمن مذهبه أن الفن لا يخلق للفن كما يقولون ، إنما الفن وسيلة لغاية ، والغاية التى من أجلها كان « لونجفلو » يقرض الشعر هى بث الأخلاق الفاضلة فى نفوس قارئيه ، الأخلاق الفاضلة كما يفهمها معتنق مذهبه الدينى الذى ينزع إلى التقشف وعدم الاسترسال فى الشهوة .

كان « لونجفلو » زميل « هوثورن » فى الجامعة ، إلا أنه لم يكد يفرغ من دراسته الجامعية حتى سافر إلى أوروبا حيث أقام ثلاثة أعوام ، يدرس فى ألمانيا وفرنسا وأسبانيا و إيطاليا ، وعاد إلى وطنه أمريكا ثم إلى أوروبا فى رحلة ثانية ثم إلى وطنه مرة أخرى ، وهنا عين أستاذا فى جامعة « هارفرد » حيث ظل فى كرسى الأستاذية ثمانية عشر عاما

---

(١) The House of the Seven Gablse (٢) The Marble Faun

كان شاعرنا طيب القلب بحيث تبدو طيبة قلبه فى صورة السذاجة التى لاتعرف تعقيد الحياة والالتواء فى التفكير وفى معاملة الناس ؛ ولذلك مضت أعوام حياته مطردة متشابهة ليس فيها حوادث ضخام ولا انقلابات مفاجئة ، وربما كانت أبرز حادثة فى حياته كلها موت زوجته الثانية محروقة بعد أن ماتت زوجته الأولى إبان رحلته الثانية فى أوروبا ؛ كان يقرض الشعر ليعلم قارئه قبل أن يمتعه ، فإذا ما قرأت شعره راعتك فيه قوة الإيمان .

ليس هناك موت ! وما يبدو موتا إن هو إلا انتقال ،
هذه الحياة المعدودة الأنفاس
إن هى إلا ضاحية من حياة الخلود
التى أطلقنا على مدخلها اسم « الموت »

ولهذه البساطة فى خلقه وهذا الإيمان القوى فى نفسه ، ظفر شعره بإعجاب الكثرة الغالبة ممن يضعون قوة الإيمان فوق كل اعتبار آخر ، ومن أشعاره ماله ذيوع بين الناس لا يكاد يدانيه فى ذلك شاعر آخر ، ومن أشهر شعره دورانا على الألسنة هذه الأبيات :

حيوات عظماء الرجال تذكير لنا
إنا نستطيع السمو بحياتنا فوق القنن
حتى إذا ما رحلنا تركنا خلفنا
آثار أقدام على رمال الزمن

آثار أقدام ربما رآها بعدنا آخَرُ
أخٌ لنا ، تحطمت به السفين وهو وحيد
إذ هو بحرَ الحياة يمخر
فبعد يأس يعود إليه الرجاء وهو بعيد

فلننهض إذن ولنكن عاملين
بعزم لا ينثنى أمام القدر

فما ننفك منتجين وما ننفك مجاهدين

وليكن جهادنا جهاد الذى صَبَر

ادجر ألن بو Edgar allan Poe (١٨٠٩ — ١٨٤٩) :

ولد « بو » فى مدينة « بوستن » لأبوين يشتغلان بالتمثيل ، حدث لهما أن افترقا ، فأوصت الأم بأبنائها الثلاثة من تولى تنشئتهم ؛ وكان أن اختار أديبنا « بو » وهو لم يزل من عمره فى عامه الثانى تاجر غنى تعهد برعايته ؛ وجاء به متبنيه إلى انجلترا مدى خمسة أعوام — بين سنته السادسة وسنته الحادية عشرة — فتلقى تعليمه الأول فى انجلترا ، ثم دخل جامعة « فرجينيا » وعمره سبعة عشر عاما ، حيث تعلم شيئين أثرا فى حياته المقبلة كلها ، تعلم الآداب القديمة من أساتذته ، وتعلم المقامرة من بعض زملائه ؛ وتراكم عليه الدين نتيجة لهذه المقامرة ورفض متبنيه ذات مرة أن يدفع عنه هذا الدَّين ، فتركه « بو » وذهب إلى مسقط رأسه « بوستن » ؛ لكنه لم يلبث أن استأنف صلة الود مع متبنيه ، والتحق بالمدرسة الحربية ، مع أنه كان أبعد إنسان عن النظام الحربى ، فلم يطق قط ما فرض عليه من نظام هناك ، ولم يسعه سوى أن يهمل واجباته إهمالا اضطر أولى الأمر إلى طرده ، فجاء هذا عاملا جديدا من عوامل الشقاق بينه و بين متبنيه ، ثم جاء آخر العوامل فى ذلك الشقاق حين تزوج التاجر من سيدة أخرى بعد موت زوجته الأولى ، فلم توافق هذه الزوجة الجديدة على أن يقيم « بو » معهما فى المنزل ، لأنه — فى رأيها — مصدر شغب لم ينقطع

يحتل « بو » فى الأدب مكانا فريدا ، لتفرده فى خصائصه ، فهو منشىء « القصة البوليسية » وهو — فوق ذلك — من جعل من الحوادث المفزعة موضوعا للفن الأدبى على نحو لا يجاريه فيه أديب آخر ، وهو فى رواية القصة يتبع أسلوبين مختلفين أتم الاختلاف ، أما أحدهما فهو أن يخلق جوا من الفزع الذى ترتعد له فرائص القارئ ، بحيث يحس هذا القارئ وكأنه فى كابوس مخيف ، وللكاتب فى ذلك فن عجيب ، إذ تراه يثير فيك الخوف شيئا فشيئا ، كأنما هو يحرك فيك عصبا بعد عصب ، حتى إذا ما أحاط بك الوهم من كل جانب فاجأك مثلا بأن الشخص الذى حكى لك عنه أنه قتل أو أحرق ، لا يزال حيا ، هو

الذى تسمع خطواته سائراً أمام باب غرفتك ! ومن خير ما تقرؤه له نموذجا لهذا الضرب من أدبه قصة « انهيار بيت أشر[١] »

وأما ثانى الأسلوبين فهو أن يلتزم الكاتب الصدق والواقع ؛ وخصوصا فيما كتب من « قصص بوليسية » حيث أبدى براعة ليس بعدها مزيد لمستزيد فى حبكة العقدة ، فترى الحوادث متساوقة مترابطة تأخذ عليك انتباهك ، فتظل تقرأ وتقرأ ولم يعد لديك وعى بالزمن ومروره حتى تفرغ من تلاوة القصة ؛ ومن أمثلة هذا النوع قصة « الجرائم فى شارع مورج[٢] » التى جعل فيها القاتل قردا ، وقصة « الخطاب المسروق[٣] » التى دارت حوادثها على أن خطابا سرق مع أن الخطاب موضوع فى مكان ظاهر من المكان الخاص بالخطابات ؛ وغيرها

و « إدجر ألن پو » شاعر فوق أنه قصاص ؛ تراه فى شعره — كما هو فى قصته — يحلم ويتيه فى خيال عجيب — خذ مثلا من شعره قصيدة « أرض الأحلام »

فى طريق مظلم موحش
لا يسكنه إلا الشياطين
وبينها شيطان يسمى « الليل »
على عرش أسود جلس وتربع
وصلتُ هذه الأرض منذ قريب

ووديانٌ بغير قاع وغَمْرٌ من الماء ليس له حدود ،
وشقوق فى الصخر وكهوف وغابات
يستحيل على عين أن تتبين شكلها
لما تساقط منها من قطرات الندى ؛
والجبال سامقة شامخا وراء شامخ

---

(١) The Fall of the House of Usher

(٢) The Murders in the Rue Morgue

(٣) The Purloined Letter

موغلة فى بحار ليس لها شطئان ،
بحارٍ تعلو بصدرها فى قلق
جياشة بموجها فى سماء من لهب ،
وبحيرات ساح ماؤها إلى غير نهاية
مياهها موحشة — موحشة وميتة —
مياهها ساكنة — ساكنة وباردة
بما تدلى فوقها من سوسن كأنه رقائق الثلج ،
إزاء البحيرات التى هكذا امتدت
بمياهها الموحشة ، الموحشة الميتة ،
بمياهها الكئيبة ، الكئيبة الباردة ،
بما تدلى فوقها من سوسن كأنه رقائق الثلج ،
إزاء الجبال ، وقرب النهر
الذى غمغم فى صوت خفيض ، غمغم منذ الأزل ،
إزاء الغابات الشهباء ، وجوار المستنقع
الذى سكنه الضفدع والورل ،
جوار البرك الآسنة
حيث تسكن الغيلان ،
فى بقاع هى من بقاع الأرض أبشعها
وفى مغاور هى من كهوف الأرض أتعسها :
هنالك بُهت الرحّالةُ إذ هو فى الطريق
وعاودته ذكريات عهد غبر ،
ذكريات لفّت كل واحدة منها نفسها فى ثوب
ومضت كأنها الأشباح متنهدة فازعة
مضت إلى جوار الرحالة واحدة بعد أخرى —

هى أشباح أصدقاء أسلمناهم منذ عهد بعيد
أسلمناهم فى أسى للأرض — وللسماء

ومات « پو » ميتة يحوطها الغموض ؛ فإنه يروى أن حادثة وقعت له أثناء السفر، فبقى فى مدينة « بلتيمور » أياما بسببها ؛ وحدث أنه شرب ذات مساء حتى غاب عنه صوابه ، ثم تصادف أنها كانت ليلة انتخاب ، فتفكه به رجال الأحزاب المختلفة إذ وجدوه هائما على وجهه فى الطرقات لا يعى ، وأخذوه الى أحد عشر مركزا انتخابيا فى المدينة ليدلى بصوته فيها جميعا ؛ ثم خلفوه ملقى على مقعد فى الطريق حتى صادفه من كان يعرفه ، ونقله الى المستشفى ؛ وقد اعترف الطبيب الذى عالجه ، اعترف بعد خمس وعشرين سنة ! بأنه حين تلقى « پو » مريضا لم يجد فيه أثرا من آثار الخمر ؛ وإذن فماذا كانت علته ، وكيف مات ؟ أراد القدر لهذا الرجل الذى عاش حياة تكتنفها الغموض أن يموت كذلك فى جو من الغموض .

والت وتمان Walt Whitman (١٨١٩ — ١٨٩٢) :

أبوه فلاح ونجار، وأجداده خليط من انجليز وهولنديين ، بعضهم كان يشتغل بالفلاحة و بعضهم بالملاحة ، فورث عنهم الشاعر حب الماء وحب الهواء ، فليس أحب لديه من البحر ومن مكان هواؤه طليق ؛ لم يكد يشب حتى أخذ يكسب قوته بعمله ، فكان أول أمره حاجبا يرسله مخدومه لقضاء التوافه من الأمور ؛ ثم اشتغل بعد ذلك طابعا ، فمعلما ، فصحفيا ؛ وأخيرا شغل نفسه بتجارة العقار الى جانب اشتغاله بالصحافة ؛ ولما أن بلغ عامه السادس والثلاثين نشر ديوانه الذى أطلق عليه « حشائش »(١) والذى قال عنه « إمرسُنْ » حين صدوره « إنه أروع ما أنتجته أمريكا حتى اليوم فى فطنته وحكمته » ؛ ثم نشبت الحرب الأهلية فى أمريكا ، واشتغل « ويتمان » بالتمريض فى أحد المستشفيات ، وأصدر خلال ذلك ديوانا آخر عن تجاربه فى تلك الأعوام ، أسماه « دقات الطبل »(٢) : فلما وضعت الحرب الأهلية أوزارها ، استقر فى وشنطن عاملا فى احدى وظائف الدولة ، حتى أصابه الشلل وهو

(١) Leaves of Grass
(٢) Drum Taps

فى الرابعة والخمسين ، ومات بعد ذلك بنحو عشرين عاما .

« ويتمان » من الشعراء الذين قضوا حياتهم كلها لا يغنى فى شعره إلا بخواطر نفسه ، ففى كل سطر خطه قلمه يعبر الشاعر عن نفسه ويكشف عما يجيش فيها ، فهو يقول عن شعره إذيقدمه لقرائه : « ليس هذا كتابا ؛ اذا ماالمس هذه الصحائف لامس ، فإنه إنما يلمس رجلا »

وقد عاش « ويتمان » عيش الشاعر الحر الطليق من قيود الدنيا ، فهو لا يعبأ من شئون الدنيا بما يعبأ به غيره فيخضع نفسه لأصفادها ، وهو لا يستعبد نفسه للتقاليد التى تستعبد سواه عن ضيق فى النظر أو ضعف فى الرجولة وهزال فى الشخصية ، وهو لا يحب نفسه الحب الذى ينسيه كل شىء عداها والذى يجعله يتكالب على هذه وتلك من سفاسف الأشياء ؛ وهو على الجملة مغتبط بالحياة لذاتها راض بما تتضمنه الحياة من متعة يحسها كل ذى حس مرهف ؛ إن « ويتمان » إذ أحب نفسه فإنما أحبها لأنه أحب الحياة ؛ والحياة التى أحبها لم تكن الحياة المرهفة الناعمة التى يدميها لمس الحرير ، لكنها الحياة الخشنة المجاهدة العاملة التى تسيل بالعرق ، حياة العضلات المفتولة والجسم الصليب ؛ وإنه اذا ما أحب نفسه لحبه للحياة ، فكذلك أحب بالتبع سواه من أفراد الإنسان لأنهم كذلك أحياء ؛ لقد أحب « ويتمان » إخوانه فى الإنسانية حبا لا يكاد ينافسه فيه شاعر آخر ؛ لا بل إنه أحب كل حى على وجه الأرض إنسانا كان أو حيوانا أو نباتا ؛ حسبه أن الشىء حى ليقدسه لأن الحياة التى تسرى فيه شىء مقدس ؛ فهو بمثابة الرجل صاح بشعره فى وجه العالم قائلا : إنه لا أمل الدنيا بغير الحب ؛ وليس حبه للحياة وللإنسان قاصرا على ما يتمثل فى الحياة والانسان من عقل وروح ، بل إنه ليحب كذلك هذا الجسد الحى نفسه لأنه جسد ، لأنه غاية فى ذاته لا لأنه أداة تخدم الروح التى تحل فيه ؛ وهو فى مجموعة من أشعاره أطلق عليها « أبناء آدم »[1] تراه يمجد لذائذ الجسم فى صراحة قد يدهش لها الأخلاقى الذى لا يفهم وجهة نظر الشاعر ؛ فشاعرنا ليس يدعو الى مجون وانغماس فى الشهوة حين يدعو الى لذة الجسد ، بل هو يمجد الحياة الشعرية الطبيعية التى لا شذوذ فيها ، فلو أمعنت فى شهوة الجسد فأنت شاذ ، ولو أمعنت فى حرمان الجسد فأنت شاذ كذلك ، ولم يخلق جسدك لهذا أو لذاك ، إنما خلق لحياة معتدلة ، وفى هذا الاعتدال جمال وجلال .

(١) Children of Adam

ومن شعره :

إليك أيتها الديمقراطية
تعالى ، فسأجعل البلاد وحدة لا تنفصم عراها
سأجعل أشرف من سطعت عليه الشمس من أمم البشر
سأجعل البلاد إلهية فى بهائها فاتنة بسحرها
سأصنع كل هذا بحب الإنسان للإنسان
بحب يدوم مدى الحياة بين الإنسان والإنسان

سأبث الإخاء على شطئان الأنهار فى أمريكا كأنه الشجر الكثيف
وعلى شطئان البحيرات العظمى ، وفى أرجاء السهول
وسأجعل من المدائن وحدة ، إذ تعانق كل مدينة أختها بالذراعين
سأصنع كل هذا بحب الإنسان للإنسان
بحب فيه معانى الرجولة بين الإنسان والإنسان
هذه هبات منى إليك أيتها الديمقراطية ، لأكون مُعينك يا معشوقتى
فى سبيلك ، فى سبيلك أنت أغنّى ما أغنى من أناشيدى

ومن قصيدة له فى رثاء الرئيس « لنكولن »

أقبِلْ أيها الموت الجميل المريح
در بموجك حول الأرض ، ثم أقبل ، أقبل رصينا
أقبل فى النهار ، أقبل فى المساء ، أقبل على الجميع ، على كل فرد من الجميع
أقبل عاجلا أو آجلا أيها الموت الرقيق

لك هذا الكون الذى ليس لحضمه قاع !
لك هذا الكون لما فيه من حياة ومن غبطة ، وما فيه من كائنات ومن علم
ثم لله هذا الكون لما فيه من حب ، حب جميل ؛ لكن الثناء على الكون

الثناء ، الثناء !
لما فيه من « موت » إذ يطوقنا بذراعيه ، ويلفنا ببرده

يا أمنا السوداء التى ما تنفك على مقربة منا سائرة فى غير صوت ، على قدمين طريتين ؛
ألم يغن لك شاعر أغنية الترحيب الذى لا يشوبه اكتئاب ؟
إذن فلأغنها لك ، إنى لأمجدك بما لست أمجد به شيئا آخر
سأغنى لك أغنية حتى إذا ماجئتنى — وإنك لآتية — جئتنى فى غير ارتياب

لك يا موت الليلُ الصامتُ تحت منثور النجوم
وشطّ المحيط ، والموجة التى أعرفها بهمسها الأبح
والروح إذ تعود إليك ، يأيهذا « الموت » الفسيح الذى قنّع وجهه فأحكم القناع ،
ثم لك الجسد إذ يثوى فى حِضنك معترفا لك بالجميل

سأغنيك يا موت أغنية أرسلها من أعالى الشجر
سأرسلها فوق الموج الصاعد الهابط ، فوق متلاحق الحقول وفسيح السهول ؛
فوق المدائن المزدحمة بآهليها ، والطرق التى تموج بالسائرين
سأرسل إليك أغنيتى ، فى نشوة ، فى نشوة ، أيهذا « الموت »

هاريت بيتشر ستو Harriet Beecher stowe (١٨١١ — ١٨٩٦) :

هذه سيدة نبغت فى القصة ، وكان موضع نبوغها قصة « كوخ العم توم »[1] التى يكاد يستحيل أن تجد من لم يقرأها بين من يقرءون القصة ، والتى كادت تترجم إلى لغات الأرض جميعا ، والتى قرأتها عند صدورها القصصية الفرنسية « جورج سان » فامتدحتها وعرفت لها قدرها العظيم .

(١) Uncle Tom's Cabin

ولدت « هاريت » لأب قسيس ، وبدرت فيها بوادر النبوغ وهى لم تزل فى سن مبكرة ؛ فهى فى عامها الحادى عشر كتبت مقالا تجيب به عن هذا السؤال : هل يمكن أن نهتدى بظواهر الطبيعة فى البرهنة على خلود الروح ؟ ثم عقبت على هذه المقالة بمأساة منظومة ؛ ولما كانت الفتاة فى سن الحادية والعشرين ، انتقل أبوها مصطحبا معه أسرته إلى بلد يدعى « سنسناتى » على الحدود بين الشمال والجنوب من الولايات المتحدة ، فكانت هذه فرصة للأديبة أن ترى بعينى رأسها حالة العبيد فى القسم الجنوبى ، ولو أنها لم تر من ذلك إلا مثلا لا يوضح حالة العبيد فى أبشع صورها ، لكنها تحركت لما رأت ؛ وتزوجت « هاريت » وهى فى الخامسة والعشرين ، وبعد زواجها بخمسة عشر عاما كتبت قصتها العظيمة الخالدة « مقصورة العم تُمْ » ومما يجدر ذكره لطرافته ، أن الكاتبة بدأت قصتها بفصل عن موت « العم تُمْ » وقبل أن تمضى فى إنشاء قصتها ، قرأت ذلك الفصل على أطفالها ، فبكى الأطفال بكاء مرا لما سمعوا ! فمضت الأم تكتب قصة « العم تُمْ » فصلا فصلا ، وكلما فرغت من فصل نشرته ؛ فلم تلفت قصتها الأنظار إبان نشرها على حلقات ، لكنها لم تكد تجمع فى كتاب حتى طار ذكرها فى الآفاق ، وعُدَّت من فورها بين أعظم من أنشأ القصة من أدباء العالمين ؛ وكتبت « هاريت » غير هذه القصة قصصا أخرى ، لكنها لا تذكر إلا بها ، ولم تخلد إلا بها ، ولعلها لم تنبغ إلا بها ؛ وماذا أنت قائل فى قصة تكون بين العوامل التى حركت الناس إلى حرب أهلية محورها حالة العبيد فى القسم الجنوبى من الولايات المتحدة ؟ ماذا أنت قائل فى قصة تصادف أشد إعجاب لدى كاتبة مثل « جورج سان » وتُقبل على قراءتها فى شغف الملكة فكتوريا ؟ لا نريد أن الأدب تقاس عظمته بمن يقرءونه من ملوك الأرض وملكاته ، ولكنا نريد أن الأثر الأدبى إذا ارتج بصداه العالم حتى بلغ الصدى آذان الرءوس المتوجة ، فلا بد أن يكون أثرا أدبيا له مكانته .

هنرى ديفد ثورو Henry David Thoreau (١٨١٧ — ١٨٦٢) :

« ثورو » كاتب مزج نفسه بالحيوان مزجا وكتب عن الحيوان كتابة الصديق عن أصدقائه ؛ لقد عاش فى الريف ، وقضى شطرا عظيما من حياته فى غابة مجاورة لقريته ، ثم كتب عن الريف وعن الغابة ، فجاءت كتابته شاهدا على ملاحظة دقيقة وحس مرهف

وقلب نابض بالإنسانية الحية الرفيعة ؛ ثم هو فوق ذلك رجل له فلسفته فى الحياة ورأيه فى الإنسان ، وبهذه الفلسفة وهذا الرأى استحق « ثورو » أن يخلد بين قادة الفكر ؛ إن كل كائن حى له عنده احترام ، بل له توقير وتقديس ، فالكائنات الحية كلها أفراد أسرة واحدة ، هم زملاء فى هذه الحياة ، هم شركاء فى الروح ؛ وليس عجيبا — إذن — ما يروى عن « ثورو » أنه كان يذهب إلى الغابة فيطمئن له الحيوان ولا يبدى علامات الذعر التى يبديها عادة فى حضرة الإنسان ؛ إنه إذا حط على كتفه عصفور سمعته يقول : إن هذا العصفور على كتفى لأشرفُ لى من وسام ذهبى أزخرف به سترتى !

وينطوى « ثورو » على نفسه ليدرسها ، فيجد فى ذلك أيضا متعة لا تنقضى ، لا بل يراه واجبا مفروضا على الإنسان أن يدرس روح الإنسان متمثلة فى روحه هو ، وعقل الإنسان مصورا فى عقله هو ؛ إن أفراد الإنسان جميعا نسخ من أصل واحد فأعجب العجب أن يكون عندك كتاب لم تقرأه ، ثم تذهب إلى جارك لتستعير منه نسخة من الكتاب نفسه ! كثير من الناس يدرسون الإنسان فيمن حولهم من الناس ، تاركين نفوسهم ، وفى نفوسهم الكفاية لو استطاعوا أن يبلغوا أغوارها ؛ فديننا « ثورو » حين أراد أن يدرس الإنسان وعقله وروحه ، ، أراد أن يدرس « هنرى ديفد ثورو » — أراد أن يدرس نفسه .

أقام « ثورو » عامين فى غابة « وولدِنْ »[1] وسجل ملاحظاته عن الحيوان فى كتاب هو الذى يعرف به فى دولة الأدب ، وأطلق على الكتاب اسم الغابة ؛ وهو كتاب يعد بين أمهات الكتب فى العالم .

وشنطن إيرفنج Washington Irving (١٧٨٣ — ١٨٥٩) :

لئن قيل لك إن الأدب الأمريكى يتميز من سائر الآداب بخصيصة فى فكاهته ، فاعلم أن مبدع هذه الروح فيه هو « وشنطن إيرفنج » الذى يعرف بقصة قصيرة له تسمى « رِبْ فان وِنْكِلْ[2] » أظهر فيها كل نبوغه الأدبى ، وقد تبعه كثيرون من أدباء أمريكا فى فكاهته وفنه ، لكنهم كانوا يجولون بتلك الفكاهة فى محيط بلدهم بحيث تصادف الإعجاب

(١) Walden

(٢) Rip Van Winkle

عند مواطنيهم ولا تهز بالابتسام قارئا خارج أرضهم ، أما « إيرفنج » فلسته إنسانية عالمية يحسها قلب الإنسان أنّى كان ، ولقد قيل إن « سير وولتر سكت » قرأ قصة « إيرفنج » « رِبْ فان ونكل » فأغرق في الضحك حتى كاد ينشق من الضحك جنباه .

وخلاصة هذه القصة القصيرة المشهورة أن « رِبْ » ذهب إلى الجبل ذات يوم فالتقى في أحد الكهوف بجماعة من الشياطين تلعب وتشرب ، وأذاقوه من خمرهم فنام عشرين سنة ، حتى إذا ما عاد وجد وجه البلد قد تغير وأنكره الناس إلا رجلا واحدا ؛ هذا هو الإطار الذى قص فيه الكاتب قصته ، فصور وتفكه ، وكان بديعا فى تصويره ، رائعا فى فكاهته .

وقد بلغ « إيرفنج » قمة نجاحه الأدبى وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، ثم أنفق بعد ذلك عشر سنوات فى التجارة ، انتهت بإفلاسه ، فعاد إلى حظيرة الأدب معتزما ألا يهجرها إلى سواها ، وأخرج « كتاب الصور[1] » — أخرجه منجما على أقسام ، خلال عامين ، وسرعان ما ذاع ذكره أيضا فى أوروبا ، وكأنما وضع « إيرفنج » بما أنشأه نموذجا لمن جاء بعده من الأدباء فى أمريكا يحتذونه ، فقد كانت الصورة الأدبية دائما واحدة عند الجميع : يصور الأديب شخصا له علاماته المميزة وقسماته الفريدة ، ثم ينطقه بما يريد له أن ينطق فى نقد هذا الجانب أو ذاك من جوانب الحياة ، فى نوع من الفكاهة خاص لا تكاد تخطئه لما فيه من تهكم لا يتوخى رقة اللمس ولا يبالى إن جاءت ضربته قاسية غليظة

مارك توين : Mark Twain (١٨٣٥ — ١٩١٠)

هو أعظم الأدباء الناثرين فى أمريكا فى القرن التاسع عشر ، تجمعت فيه كل خصائص النثر الأمريكى التى ظهرت فى أسلافه من الأدباء ، خصوصا روح الفكاهة ، اسمه الحقيقى هو « صموئيل لانجهورن كلمنز Samuel Langhorne Clemens » لكنه حين كان فى عامه السابع عشر اشتغل ربانا لسفينة تجارية فى نهر المسسبى ، ومن عادة الربان أن يقيس عمق الماء بين آونة وأخرى ، ويصيح لأحد البحارة قائلا — مثلا — « علِّم على واحد »

---

(١) The Sketch Book

« علم على اثنين » « علِّم على ثلاثة » وهكذا ، ومن هذه الصيحات اشتق اسمه الذى اشتهر به ، فـ « مارك توين » معناها الحرفى « علِّم على اثنين »

نقول إن « مارك توين » أبرز فى أدبه صفة التفكه التى عرف بها الأدباء الأمريكيون ، التفكه الجاف ، يقوله رجل خبر الدنيا ولم ينعزل عن الحياة فى برج من العاج ، رجل خبر الحياة كما يحياها الناس فيلمح فيها ما يثير الابتسام ، فلا يمتنع عن الضحك من غفلة الناس وغفلته معهم ، وقد استعاد بذاكرته كل تجاربه فى صدر حياته ، فاستمدها كثيرا من مادة أدبه ، وأضاف إليها ما خلقه خياله ، ومن أول إنتاجه « أمريكى فى بلاط الملك أرثر[١] » والملك أرثر — كما علمت فى الجزء الأول من هذا الكتاب — ملك أسطورى فى العصور الوسطى ، كانت تنسج حول شخصيته القصص عن فرسان تلك العصور وشهامتهم فى القتال دفاعا عن الضعفاء ومن إليهم ممن يحتاج إلى معونتهم ، فتخيل « مارك توين » أن أمريكيا حديثا ، بعقلية الأمريكى ونظراته وآرائه ، قد عاش فى بلاط الملك أرثر وفرسانه ، ثم اتخذها الكاتب فرصة ليزيل عن ذلك العهد ما نسج حوله من أوهام جعلته يبدو عهدا لامعا براقا ، وهو فى حقيقته عصر تعس وشقاء

على أن شهرته ترتكز على كتابين غير هذا ، هما « الضفدعة الوثابة[٢] » و « السذج فى الخارج[٣] » وهما كذلك مزيج من حقائق الحيــاة وخيال الكاتب . على أن الحقائق نفسها كانت تمط بخياله حتى تبدو على صورة مثيرة للضحك ، خذ مثالا لذلك أنه حين كان فى مدينة دلهى بالهند دخل غرفته قردان ، هذه حقيقة ، فلما سجلها فى أدبه ، سجلها على هذه الصورة : « ولما استيقظت من نومى وجدت أحد القردين أمام المرآة يسوى شعره بالفرجون ، ووجدت الآخر قد أمسك بكراسة مذكراتى يقرأ فيها صفحة فكاهية ، لكنه يبكى لقراءتها ؛ فلم يعننى القرد الذى يسوى شعره بالفرجون ، لكن سلوك القرد الثانى أساء إلى نفسى أيما إساءة ، ولا أزال حتى اليوم أشعر بأثر تلك الإساءة »

وللكاتب كذلك « تُمْ سُويَرْ » و « هَكِلْبرى فِنْ » وفى كل منهما يصور صبيا

(١) A Yankee at the Court of king Arthur

(٢) The Jumping Frog

(٣) The Innocents Abroad

له مميزاته الخاصة التى تجعله فرداً له سماته وقسماته . وهاتان الصورتان من أهم ما يذكر فى آداب العالم إذا ما ذكرت صور الغلمان التى خلقها خيال الأدباء ، وقد استمد الكاتب شخصية « هكلبرى » من غلام فى الواقع كان يتيما وتشرد فى الطرق والغابات . وقد حكى « مارك توين » كثيرا جدا من تجارب الشخصية وهو فى غلومته إذ قص لنا عن حياة « هكلبرى » ، وأما الصبى الآخر الذى صوره نعنى « تُمْ سُـوير » فقـد جاء فى الحقيقة مؤلفا من ثلاثة جوانب استمدها الأديب من ثلاثة غلمان ، وجمعهـا هو بخياله فى شخصية واحدة ، وهنا كذلك سجل « مارك توين » كثيراً من تجاربه وتجارب زملائه فى المدرسة فى مثل هذه السن .